الامتحان الشفوي : ماله وما عليه (*)

أ . د . فؤاد أبو حطب
أستاذ علم النفس التربوى
كلية التربية – جامعة عين شمس

الامتحان الشفوى له تاريخ طويل فى تاريخ التربية . فحتى قرن واحد من الزمان فقط من بين آلاف القرون التى عاشتها البشرية كان الامتحان الشفوى هو الصورة المسيطرة على التقويم التربوى . وقد حدث التحول فى الوجهة Paradigm Shift مع ظهور فنيات التقويم الحديثة التى حلت تدريجياً محل الامتحان الشفوى حتى تكاد تخرجه من الساحة التربوية تماماً . صحيح ان للامتحان الشفوى بعض الاستخدامات حتى وقتنا الحاضرلعل أهمها مناقشة الرسائل الجامعية التى هى أقرب إلى الاحتفالية منها إلى موقف التقويم . وعرض المتقدمين للترقية لما يكلفون من واجبات أمام اللجان العلمية الدائمة والتى تتحول– عندنا – أحياناً إلى شكل من أشكال إمتهان الآخرين . كما يستخدم أحياناً فى إمتحانات التخصص لمزاولة المهنة على نحو أصبح أحياناً شكلاً بلا موضوع .

ويرى البعض أن للإمتحان الشفوى قيمته فى بعض التخصصات التى تتطلب التفاعل مع الآخرين . وهذه هى الحجة التى يقيمها أصحاب تخصص الطب دفاعاً عن وجوده فى منظومة تقويم طلبة الطب ، بينما لا نكاد نجد من يدافع عنه فى تخصص التربية . وإذا أردنا – أن نطبق هذه الحجة بأن نزن مقدار ما (التعامل مع الآخرين) فى كل من مهنتى الطب والتربية فان كفة التربية ترجح بكثير . وهل إذا كنا نهدف إلى قياس قدرة الطالب على (التعامل مع الآخرين) يكون ذلك بالامتحان الشفوى بصورته الصحيحة الراهنة ، أم يكون بصورة أخرى من صور التقويم التربوى تسمى فى الوقت الحاضر تقويم الآداء Performance Assessment تقوم على إفتراض أن (التعامل مع الآخرين) من نوع المهارات العملية التى تتطلب فنيات خاصة فى تقويمها شأنها فى ذلك شأن أى مهارة عملية أخرى .

(*) ألقيت هذه الورقة فى الندوة التى عقدتها جامعة أسيوط – وحدة تقويم الأداء الجامعى ١٧ – ١٨ إبريل ٢٠٠٠ .

ولعل هذا يبرر الصيحة الهامة التى أطلقها بعض علماء التقويم التربوى منذ حوالى خمسين عاماً (Kostick & Nixon , 1993) وهى أن الاختبار الشفوى لا يزال حياً بالرغم من موته النظرى ، وبلغة الطب الحديثة نقول أنه مات اكلينيكياً ومع ذلك فإن قلبه ما زال ينبض بسبب بعض آليات التشغيل والافتعال والاصطناع .

والسؤال الآن : هل يمكن أن نبعث فى الامتحان الشفوى حياة جديدة ، تجعله أكثر وظيفية وجدوى فى تقويم طلاب الجامعة ؟

والإجابة على ذلك بالإيجاب بشرط أن نبحث أولاً عن نظرية للامتحان الشفوى تجعل ممارسته لها معنى ، ولعلنا لا ننسى الدرس العظيم الذى قدمته لنا فلسفة العلم على مدى تاريخ الإنسانية الطويل وخلاصته : أن الممارسة بلا نظرية عمياء والنظرية بلا ممارسة جوفاء ، وبذلك وحده يمكن للإمتحان الشفوى أن يكون أكثر رشداً وفعالية . وفى هذه الورقة محاولة لبناء أساس نظرى للامتحان الشفوى لتحسين أساليب استخدامه والارتقاء بفعاليته .

نحو نظرية للإمتحان الشفوى :

ما هو الإمتحان الشفوى ؟ وما هى أوجه استخدامه ؟ وما هى حدود الإستخدام؟ السؤال الأساسى الذى يجب أن تبدأ به هو سؤال التعريف . ما هو الإمتحان الشفوى ؟ والإجابة تبدو سهلة فهو عبارة عن علاقة مباشرة بين شخصين فاحص (ممتحِن) ومفحوص (ممتحن) من نوع علاقة الوجه للوجه Face - To - Face وتكون مهمة الفاحص إما قبول إجابة المفحوص (الطالب مثلاً) أو اللجوء إلى أسئلة التعمق (كما هو الحال فى المقابلة الشخصية Interview) . ومن هنا يبدأ تعقيد المسألة . ثم إن الفاحص عليه أن يحكم على نوعية إجابة المفحوص (وبذلك يزداد تعقيد الموقف) . ويزداد الموقف تعقيداً أكثر حين يتألف موقف التقويم التربوى من أكثر من فاحص واحد (حرصاً على الموضوعية . والسؤال كيف تتحقق ؟ وما هى آليات التأكد من توافرها ؟!) . ويقترب الموقف من قمة تعقده حين يتألف موقف الامتحان الشفوى من عدة مفحوصين معاً (لزيادة كفاءة العملية وتحقيق العدالة فى الحكم ؟!) . يمتحنون معاً وفى وقت واحد . ويعطى كل منهم الفرصة للإجابة على نفس الأسئلة (إذا أعطيت للجميع حقاً ودون محاباة لبعض على حساب البعض أمام الجميع) . ويصل الموقف إلى ذروة التعقد حين يطلب الفاحصون من المفحوصين أن يسأل بعضهم بعضاً ويقتصر دوره على إصدار الأحكام فقط ، بل إن هذه المهمة قد يتركها الفاحص للمفحوصين أنفسهم أيضاً .

موقف الامتحان الشفوى إذن موقف مركب ، ويتألف من مستويات عديدة لكل منها وظيفته وأغراضه ، فقد يكون مجرد استجواب (سؤال وجواب) ، أو مقابلة ، أو إختبار آداء ، أو يكون هذا كله معاً . فأى صيغة من هذا كله نرتضيها ؟ ولأى هدف ؟! وبالطبع فإن الامتحان الشفوى – مهما كانت صورته هو اتصال مباشر ، وتواصل إيجابى وتفاعل حى بين الفاحص والمفحوص ، ويبدو أنه بهذه الصورة أكثر شخصية أو ربما أكثر إنسانية من الامتحان التحريرى ، بشرط أن يتحرر من تهديد الذات للمفحوص ، ويصل المرء ببعض المتقابلين أن يصف الامتحان الشفوى بأنه قد يكون (خبرة سارة وممتعة) .

وبالطبع لا نود أن نخرج بالامتحان الشفوى عن سياقه فإن البعض الذين يعتبرونه أكثر ملائمة فى قياس مالا يقاس بالامتحان التحريرى مثل المظهر الخارجى والإبداع وخصائص الشخصية والتسامح مع الضغوط والأثر الذى يحدثه المفحوص فى الآخرين إلخ ... فلهذا كله أدواته الملائمة لقياسه ، كما يجب ألا تختلط الأوراق فيصبح حديثنا عن الامتحان الشفوى هو حديث عن المقابلة الشخصية . والمقابلة فن رفيع من فنون التقويم التربوى ولها أساليبها الخاصة التى لا تجعلها مرادفاً للامتحان الشفوى .

هل يعنى ذلك أن الامتحان الشفوى ليس له مكان فى نظرية التقويم التربوى ؟

فى رأينا أن الإجابة على هذا السؤال تجعلنا نحدد على سبيل الحصر – وليس على سبيل المثال – المجالات الرئيسية الآتية لاستخدام الامتحان الشفوى :

١ – مهارات التحدث والاستماع فى اللغة وهما أصل المهارات اللغوية جميعاً ، فالقراءة والكتابة مهارات أكثر حداثة فى تاريخ الإنسانية .

٢ – أسئلة المعلم أثناء التدريس لطلابه ، أثناء المحاضرة أو خلال موقف مناقشة حيث يكون للسؤال الشفوى وظيفة تعليمية .

٣ – أسئلة المتابعة للإجابة التحريرية حين يطلب من الطالب التعليق على إجابته أو توسيعها أو تبريرها ، وخاصة فى حالات الشك فى الغش فى الامتحان التحريرى ، أو عدم الفهم ، أو التعرف على عمليات الإجابة Answer Process حين يكون الناتج Product مضللاً فى الحكم .

وبالطبع فإن للامتحان الشفوى – حتى ولو أحسن توظيفه فى أغراضه المخصصة له بعض الحدود ولعل أهم هذه الحدود مايلى :

١ – إضاعة الوقت واستهلاكه بسبب طبيعته الفردية وخاصة إذا خصص للامتحان الشفوى الوقت الواجب له (عادة لا يقل عن نصف ساعة) حتى يمكن الحصول على عينة ملائمة من أداء الطالب .

٢ – العلاقة الشخصية والمباشرة بين الفاحص والمفحوص قد تفتح الباب للتحيز وأثر الهالة والأنطباع الشخصى والذاتية على حساب تقويم عينات السلوك المطلوبة ويؤثر ذلك فى دقة التقويم .

٣ – قد يؤثر المواجهة المباشرة بين الفاحص والمفحوص فى العمليات المعرفية لدى المفحوص والتى ربما تكون عادية فى الظروف المعتادة . وقد يتعارض ذلك مع بعض ما هو شائع من أن الامتحان الشفوى يختبر قدرة الطالب على التفكير فى الحال أو تحت الضغط والكبت ، فمن حقائق علم النفس المعروف الحديث أن الإنسان يؤدى أفضل آداء من الوجهة المعرفية حينما لا يكون تحت ضغط التهديد أو الكبت ، والإبداع أكثر العمليات المعرفية حاجة إلى ذلك بل إن البعض يرى أن القدرة على المقاومة تحت ظروف الضغط أو الكبت ليست بالضرورة مؤشراً على الفعالية الشخصية الكلية . وأى غزو للإمتحان الشفوى على أنه يقيس ما لا يستطيع مثل الأمانة والحماس والتفاعل أو القدرة على التعامل مع الآخرين والإبداع وغيرها ليس صحيحاً ، فهذه الخصائص وأمثالها لا تتوافر للمفحوص فرص كافية للتعبير عنها أو للفاحص أن يلاحظها فى موقف الامتحان الشفوى قصير الأمد .

٤ – صعوبة الحصول على أحكام دقيقة إلا إذا توافرت شروط خاصة .

الوصايا الست لزيادة فعالية الامتحان الشفوى فى أغراضه الخاصة :

١ – تجنب استخدام الاختبار الشفوى إذا كان الامتحان التحريرى يمكن أن يؤدى المهمة على نحو أكثر فعالية (مثل قياس النواتج المعرفية Cognitive Products) .

٢ – تحديد أغراض استخدام الامتحان الشفوى والأساس الذى سوف يستخدم فى الحكم على آداء الطلاب (تحديد السلوك موضع التقويم ، إعداد بطاقات ملاحظة أو مقاييس تقدير ، تحديد أنماط الأسئلة التى سوف تطرح على المفحوصين) .

٣ – استخدام فاحصين على الأقل بشرط أن يكونا من أهل الخبرة والثقة معاً . (الألفة بموضوع التقويم ، التدريب على استخدام الاختبار الشفوى وخاصة فى أغراض الامتحان والسمات التى تقوم ، أنواع الأسئلة ، ومعنى درجات مقياس التقدير) .

٤ -تهيئة الفرصة للطالب لأن يؤدى الامتحان الشفوى فى جلستين مستقلتين على الأقل ، كلما كان ممكناً مع فاحصين مختلفين فى كل حالة .

٥ - تدريب الطلاب على الآداء فى الامتحان الشفوى (معرفة أغراض الامتحان ، وطبيعته وأساس الحكم والتقدير فيه ، والصيغة العامة للأسئلة التى تطرح والإجراءات التى تستخدَم . تجنب أن يكون الامتحان شركاً خداعياً . إذا كان ضمن متطلبات الامتحان طرح أسئلة غير مرتبطة أو أسئلة يستحيل حلها (لمعرفة ما إذا كان الطالب يدرك ذلك) ولابد أن يكون ذلك ضمن تهيئة الطلاب لهذا الامتحان .

٦ - تنظيم البيانات لمراجعة صدق وثبات البيانات والأحكام . فالصدق يبنى هنا على أساس الأحكام التى يميزها الفاحصون . وحساب مؤشرات الموضوعية للتغلب على اختلاف الأحكام وتعادلها .

إننا يجب أن ننبه إلى مزالق الامتحان الشفوى وطرق تحسينه ليؤدى أغراضه حتى لا تصبح جهودنا ضياعاً فى سراب الصعوبة وضباب الذاتية وعدم الثبات والدقة .